حضارات متباينة فى الماضى

وحضارة واحدة فى المستقبل

الدكتور عبد الرحمن بدوى *

نحن نستشرف الى الاسهام فى الحضارة بالقـــدر الذى تمكننا به قوانا كما فعلنا من قبل فى انشاء الحضارة العـربية ، وان كان التاريخ لا يقبل الاعادة ولا يتكرر الحديث الواحد فيه مرة أخرى ٠

فكيف نتسلح بالوسائل التى تكفل لنا القوة على هذه المشاركة ؟ وماذا نستهدف من هذه الحضارة ؟

وللجواب عن هذين السؤالين الاصليين ينبغى أن نحسب حساب الأوضاع الطارئة على العالم ، لأننا انما نعمل فى هذا العالم لا فى غيره ، ونتأثر بكل مايجرى فيه فعلا ، وانفعالا ٠

وأبرز سمة فى هذه الأوضاع الطارئة : وحدة العالم اليوم من حيث الاتصـــال ٠

لقد زالت الحواجز بفضل الأجهزة الألكترونية (الراديو والتليفزيون واللاسلكى) وبفضل الصواريخ والأقمار الصناعية والملاحة فى الفضاء ، ولم يعد فى وسع قوة مهما كانت أن تحول بين الناس بعضهم وبعض فى ايصال المعلومات وتبادل الأنباء ٠ وفى خلال عامين أو ثلاثة لن يكون فى العالم كله دولة واحدة خاضعة لدولة أقوى منها ٠

وهذا العامل الجديد من شأنه أن يغير الأساس الذى كانت تقوم عليه الحضارات فى الماضى : أعنى الانفصال والهوات غير المعبورة بين عوالم لكل منها روحها وبيئتها ومناظرها وأدواتها ٠

(*) مجلة الثقافة ، وزارة (الثقافة والارشـــاد القومى) ، العدد الثالث ، ٦ أغسطس ١٩٦٣ ٠

لقد كانت الحضارات تقوم فى الماضى فى مناطق محددة تمام التحديد من حيث المكان ، وتبعا لهذا أيضا من حيث الزمان : فكانت الحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الصينية ، والحضارة الهندية ، والحضارة اليونانية الرومانية ، والحضارة العربية ، والحضارة المكسيكية · ولكل منها روحها الخاصة ورموزها الأولى وما يتفرع عن هذه الروح من مظاهر تتبدى فى ألوان النشاط التى تمارسها : من علم وفن ودين وفلسفة وصناعة فنية وقانون ونظام سياسى الخ · وتاريخ هذه الحضارات يشهد على تنوعها واختلاف روحها وتعدد مظاهر نشاط هذه الروح ولا محل للتنازع فى هذا الاختلاف الواضح البين ولا أفهم أبدا أن يجادل أحد فى هذا الاختلاف : من ذا الذى يستطيع أن يقول أن الحضارة اليونانية هى بعينها الحضارة المصرية القديمة ، أو الحضارة العربية ، أو الحضارة الصينية ، أو الهندية أو المكسيكية ؟ !

ولكنى بهذا التقرير للتعدد بين الحضارات وتباين روحها أقرر أيضا أنه لا محل للتفرقة بين شرق وغرب فيما يتصل بالحضارة · أولا لأنه لا يوجد شرق مطلق وغرب مطلق ، من الناحية الجغرافية ؛ بل الشرق شرق بالنسبة الى مايقع غربيه ، والغرب غرب بالنسبة الى مايقع شرقيه فالهند غرب بالنسبة الى الصين واليابان ، والشرق الأدنى (أو الأوسط) غرب بالنسبة الى الهند ، وأوربا الغربية شرق بالنسبة الى أمريكا ، وأمريكا شرق بالنسبة الى اليابان ، وهكذا ـ لسبب بسيط جدا وهو أن الأرض كروية ، ومادامت كروية فليس فيها شرق مطلق ولا غرب مطلق ، بل كل مافيها شرق وغرب فى آن واحد : شرق بالنسبة الى مايقع غربيه ، وغرب بالنسبة الى مايقع شرقيه ·

وعلى هذا فلا محل للتفرقة بين شرق وغرب أساسا ، فهذه تفرقة وهمية لا أصل لها ، رغم انتشارها كأنها من المسلمات ، منذ الحروب الصليبية خصوصا ·

هذا فيما يتصل بالتاريخ العام منذ فجره حتى القرن العشرين : حضارات متعددة ، كل منها تكون دائرة مقفلة ، محددة زمانا ومكانا ، ولها روحها الخاصة ، وبهذه الروح تطبع كل مايصدر عنها فى كل مرافق الحياة والانتاج الانسانى ·

أما فى القرن العشرين فقد أحدث التكنيك (الصناعة الفنية) انقلابا محوريا وأهم انجازاته : الطيران ، واللاسلكى ، والصواريخ ، والأقمار الصناعية وما عسى أن يستجد فى ميدان الملاحةفى الفضاء والفيزياء النووية· بل ان أدوات التدمير الجماعية الجديدة (من قنبلة ذرية وقنبلة هيدروجينية وكوبلتية) لهى من العوامل الحاسمة فى توحيد العالم معنويا ، بسبب التكافل فى الشعور الجماعى بالأخطار التى تتهدد الانسانية بأسرها فى أى مكان كانت والى أى جنسية أو لغة أو دين انتسبت ·

فاذا تقررت هذه الواقعة ، واقعة اتجاه العالم نحو التوحيد بحيث يصير عالما واحدا أو جسما واحدا ، فان من الواضح أنه لم يعد ثم محل للاعتبارات القديمة التقليدية ·

وأول هذه الاعتبارات السؤال : الى أى حد نشارك فى نتاج العالم ، بالمعنيين : المادى والروحى ، والروحى نقصد به كل مايصدر عن الفكر الانسانى ؟

فقد أصبح سؤالا غير وارد كما يقال ، لأنه وقد سار العالم فى التوحيد فلا محل للممتنع عن المشاركة فى انتاج العالم كله بمختلف تياراته واتجاهاته وانجازاته · لأن من يأخذ شيئا دون أن يشارك فى الكل ، يفقد الشىء نفسه مع الكل ، وأنه لا يوجد شىء منعزلا قائما برأسه ، بل كل انجاز أو نظرية أو تيار أو مذهب يرتبط عضويا بكل لا ينفصل عنه · وكما أنك لا تستطيع أن تركب جهازا من عدة أجهزة ذوات نظم مختلفة ، ولا كائنا حيا من أعضاء شتى تنتسب الى كائنات متباينة ، كذلك لا تستطيع أن تأخذ جانبا أو نظرية أو مذهبا دون أن تأخذ الكل أو الجهاز الذى يندرج فيه وينتسب اليه · ولهذا ينبغى اذا أردنا أن نسهم فى هذا الكل الحضارى الذى يسعى العالم الى تأليفه ـ أقول : ينبغى أن نأخذ الكل أو المركب بكامل أجزائه ، وبالروح التى تسوده ، وبالطريقة العضوية التى تمسك به ·

ومعنى هذا أن نفتح كل الأوردة لتلقى الدم الذى يمسك الحياة فينا ويمكن بنيتنا من الحياة ثم الانتاج والابداع والاســـهام فى فعل الخلق الحضارى · يجب أن نفتح نوافذنا للأشعة كلها من أية ناحية جاءت ، فندرس ونتعمق ونتمثل كل المذاهب والتيارات والنظريات الفكرية والعلمية ، ولابد سينبثق عن هذه الدراسة المتعمقة النافذة الشاملة المركب الفكرى الذى سيكون

أداتنا فى الابداع الفكرى والخلق العلمى والابتكار الحضارى · وكل حد أو قصر فى هذه الناحية لابد محدث أثره السيء : أعنى حد قدرتنا على الابتكار واصابة قوانا بالقصور عن المشاركة ·

ولنا فى الحضارة العربية نفسها خير أسوة فى هذا الأمر : ألم تأخذ من كل الحضارات : اليونانية والرومانية والفارسية والهندية والصينية ـ دون استثناء ؟ هل امتنعت من المشـــاركة فى كل ضروب التراث الفكرى للانسانية ؟ هل قالت : لا ، هذه حضارة وثنية ، وتلك حضارة لا تقول بالنبوات ، واذن فليس لى أن آخذ عنها ؟ صحيح أن بعض الأصوات قد ارتفعت لتعلن سخطها على التأثر والأخذ والمشاركة فى هذه الحضارات الأخرى ، ولكنها أصوات منكرة لم يكن لها أى شأن فى ايجاد هذه الحضارة الزاهية العظيمة · والا فما دور ابن قتيبة والسيرافى وابن تيمية وابن الصلاح ـ ممن صاحوا فى وجه هذه التيارات غير العربية ـ لو قورن بدور أمثال الفارابى ومحمد بن زكريا الرازى وابن سينا وابن رشد والبنائى والخوارزمى والبيرونى ؟ ! ان دور الأولين دور سلبى تافه لا قيمة له فى ايجاد الحضارة العربية العظيمة ، بل كانوا بمثابة مسامير تريد أن تخرق عجلات الحضارة ، وهيهات هيهات ! أن ما ترجم عن اليونانية واللاتينية (أوروسيوس) والهندية (كتب الحساب والفلك) والفارسية (كتب السياسة والحكم والقصص) فى القرون الثانى والثـالث والرابع والخـامس للهجرة من مؤلفات علمية وفلسفية أكبر بعشرات المرات كما وكيفا (وخصوصا كيفا) من كل ماترجمناه منذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين عن الحضارة الأوربية وغيرها ومن هنا كان تخلفنا تخلفا بارزا ، وكانت مساهمة العرب فى ايجاد حضارة جديدة · ولو استمع العرب فى تلك القرون الى الصيحات المبكرة التى أطلقها أمثال هؤلاء الذين أشرنا اليهم من قبل ، لما كان ثم مايعرف اليوم ويذكر وينوه به : أعنى الحضارة العربية الزاهرة العظيمة الأثر بين الحضارات الانسانية ·

والنتيجة الأولى اذن هى أنه **ينبغى علينا أن نشارك فى الفكر العالمى كله أيا كان مصدره : ندرسه ونتعمقه وننفذ الى صميمه ونتمثله** · فاذا نبذنا شيئا ننبذه عن علم عميق واتقان ، واذا أخذنا بشيء منه أخذنا عن وعى كامل ونقد فاحص وتمثل صحيح ·

★ ★ ★

واعتبار ثان ينبنى على تفرقة وهمية هى الأخرى ، هى التفرقة بين المادية والروحية فى الحضارة والانتاج الانسانى ٠

فما من انجاز مادى (صناعة فنية وما اليها) الا وكان أساسه والأصل فى تحقيقه نظرية فكرية عقلية فالآلات والمخترعات والاكتشافات فى مختلف فروع العلم كلها نبات نظريات علمية ، أى روحية خالصة ٠ وما تقدمت الصناعة الفنية الا بفضل تقدم البحث العلمى الخالص غير المستهدف أساسا الى التطبيق العملى ٠ والفكر والتطبيق يسيران متواكبين متآزرين لا يتقدم أحدهما الا بتقدم الآخر ، ومن الوهم الفاحش أن نضع الواحد فى مضادة الآخر ٠ فنظريات الميكانيكا العقلية والفيزياء النظرية هى التى أدت الى اختراع الآلات والأجهزة ، والأجهزة والآلات بدورها تساعد على تقدم البحث العلمى بما تيسره من امكانيات لا تتوافر بغيرها : فمن هو العالم الذى يكتشف نظريات أو أنظمة علمية فلكية دون أن يستعين بالأجهزة والآلات ! وهل سيتقدم علم الفلك الا بفضل الصواريخ والأقمار الصناعية ؟ أو هل يتقدم الطب النظرى الا بفضل الأجهزة العلمية (من مجهارات ومحرات

أما الذين يتحدثون عن الروحية والمادية فى هذا المضمار فانما يفرقون بين مفهومين مختلفين تماما : انهم يفهمون الروحية بمعنى الخوارق والسحر وما يتجاوز نطاق العقل ـ فان كان هذا قصدهم من الروحية فمن المسلم لهم تماما بأن هذه الروحية ـ المزعومة ـ تختلف كل الاختلاف عن المادية بمعنى التفسير العقلى القائم على التجريب والملاحظة ثم الاستقراء والاستدلال ٠ انما الروحية التى نقصدها هنا ونفهم منها أنها لا تفترق عن المادية ، بل تلازمها وجودا وعدما ، هى النزعة العقلية العلمية المبنية على مناهج البحث العلمى السليم ٠

وقد لاحظنا أن الذين يصفون « الشرق » (بالمعنى الذى يقصدونه) بالروحية انما يفهمون من الروحية هذا المعنى ، أى الايمان بالخوارق والمعجزات والغيبيات ، ومن هنا يلتاث الفهم ولا يتضح المقصود ، فضلا عن أن فى هذا تعميما لا محل له فالفكر الصينى أبعد مايكون عن هذا ، بل هو عملى « مادى » حسى يقصر نفسه على الحياة الدنيا أنه لون من حكمة

الحياة فى جانبه الأخلاقى وصناعة فنية دقيقة فى جانبه العملى الدنيوى ٠

* * *

وخلاصة الرأى عندنا :

أنه ينبغى أولا أن نطرح هذه التفرقة بين شرق وغرب ، وأن نطرح التفرقة بين حضارة مادية وحضارة روحية (أى عقلية) ٠

وثانيا أن نقرر أن التاريخ العالمى حتى هذا القرن العشرين كان منقسما الى حضـارات متبـاينة مختلفة لكل منها روحهـا الخاصة ، وتكون ذاتها مقفلة على نفسها ٠

أما فى القرن العشرين ، نتيجة التقدم الهائل فى وسائل التواصل والتخاطب بين الناس ، فان الحضارة تسعى الى أن تكون وحدة متحدة ، ولابد من المشاركة فيها كلها وبوصفها كلا حتى الابداع فيها والأخذ بقسط حقيقى منها ٠